الحملة الفرنسية على الصعيد عام ١٧٩٨

الأستاذ الدكتور/ محمد محمود السروجي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب – جامعة الأسكندرية

جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر (٢ يوليو ١٧٩٨) نتيجة الصراع السياسى والحربى الذى نشب بين فرنسا وبين بريطانيا وحلفائها ، [١] وانتصار فرنسا. وترتب على ذلك انفراط عقد التحالف الدولى الأول ضد فرنسا ، دون أن تتمكن من إنزال الهزيمة بغريمتها بريطانيا . وكان على فرنسا أن تضرب بريطانيا فى عقر دارها ، حتى لا تفكر فى إعادة التحالف ضدها مرة أخرى .

ولما وجدت أن من المتعذر عليها غزو الجزر البريطانية لقوة الأسطول البريطانى فى بحر الشمال ، رأت أن تضرب المصالح البريطانية فى الشرق ، وذلك عن طريق الاستيلاء على مصر التى تقع على الطريق الإمبراطورى المؤدى إلى ممتلكات بريطانيا فى شرق وجنوب شرقى آسيا .

وكان " نابليون بونابرت " – قائد الحملة – يحدوه الأمل فى تكوين إمبراطورية شرقية يكون مركزها مصر ، ذات الموقع الجغرافى والاستراتيجى المهم بين الشرق والغرب ، وأن يعيد إحياء الطريق التجارى القديم عبر البحر الأحمر ، وذلك بشق قناة تصله بالبحر المتوسط ، مما سيمكن فرنسا من منافسة تجارة الهند الإنجليزية ، بل والتفوق عليها .

وقد استطاع " بونابرت " التغلب على مقاومة الأهالى والمماليك فى الدلتا ، ودخول القاهرة بعد معركة إمبابة أو الأهرام فى ٢١ يوليه ١٧٩٨ ، وفرارإبراهيم بك إلى شرق الدلتا ، ومنها إلى بلاد الشام ، واعتصام مراد بك بصعيد مصر . وكان وجود مراد بك

---

(١) النمسا ، وبروسيا ، وأسبانيا ، وهولنده .

بالصعيد يقلق بال " بونابرت " ؛ لإدراكه بأن عدم خضوع الصعيد لسطانه سيزعزع الوجود الفرنسى فى الوجه البحرى . (٢)

ولذا كلف الجنرال " ديزيه Desaix " وهو أحد قادته الأكفاء بإقامة بعض التحصينات جنوب الجيزة ؛ إتقاء للهجرات المتوقعة من جانب مراد ؛ توطئة لغزو الصعيد إذا ما فشل فى الإتفاق مع مراد حول ترك حكم الصعيد له ومن جرجا شمالا وحتى الشلال جنوبا فى ظل السيادة الفرنسية ، على أن يقوم بدفع الخراج المقرر عليه سنويا للسطات الفرنسية الحاكمة . وكلف " بونابرت " المسيو روستى Rosetti قنصل النمسا العام فى مصر للقيام بمهمة التفاوض مع مراد بك طبقا للشروط السابقة . (٣) وهذا الأمر من جانب " بونابرت " يخالف ما ورد بمنشوره الذى وجهه الى المصريين عندما وطئت قدماه أرض مصر ، من أنه ما أتى إلى بلادهم من حكم المماليك الطغاة الذين استأثروا بخيرات البلاد دونهم . (٤)

كانت الحاجة الملحة إلى القمح هى التى دفعت " بونابرت " إلى سرعة الاستيلاء على الصعيد المورد الأساسى له ؛ نظرا لامتناع وروده إلى الوجه البحرى والقاهرة فى الأشهر الأولى من مجىء الحملة ؛ مما هدد سكان الوجه البحرى بالمجاعة . (٥) وذلك لندرة المعروض منه ، واختفائه من الأسواق ، وارتفاع ثمنه ارتفاعا باهظا .

ومن المسلم به أن مراد بك رفض الاتفاق مع الفرنسيين ، اعتمادا على مؤازرة المصريين له للدفاع عن بلادهم ، لا سيما وأن الحملة لم تكن قد استقرت بعد فى الوجه البحرى . هذا فضلا عن أن الاستيلاء على الصعيد لم يكن سهلا أو ميسورا ، و انما سيكلف الفرنسيين ثمنا غاليا .

---

(٢) عبدالرحيم عبدالرحمن ، فصول من تاريخ مصر والاجتماعى فى العصر العثمانى ، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٠ ، ص ١٣٢ .

(٣) Correspondance de Napoleon 1 er , T.V, Bonaparte au Rosetti , no . 2922, 1 er Aout 1798.

(٤) عبدالرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، المطبعة العامرة الشرقية ، مصر المحمية ، ١٣٢٢هـ ، ٣/٤ .

(٥) عبدالرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية تطور نظام الحكم فى مصر ، مطبعة النهضة بمصر ، ط١ ، ١٣٤٧هـ / ١٩٢٩م ، ١/٣٦٥ ، ٣٦٦ .

ونظرا لخطورة الوضع ، تحرك " ديزيه " بقواته البالغة خمسة آلاف جندى ، مزودين بالأسلحة والذخائر ، وبعض السفن الحربية فى أواخر أغسطس ١٧٩٨ ؛ بناء على أمر "بونابرت" ، وسار "ديزيه" فى محاذاة النيل نحو الجنوب ، متجها إلى مقر مراد بك فى البهنسا. وفى طريقة استولى على اطفيح ، وبنى سويف دون مقاومة تذكر . وكان هدف "ديزيه" مفاجأة مراد والقضاء عليه . ولكنه عندما أحسن باقتراب الفرنسيين انسحب بقواته وأسطوله جنوب اللاهون ، واتخذ محمد بك الألفى وهو من أعوانه موقعا وسطا بين البهنسا واللاهون .

واصل الفرنسيون تقدمهم فى أعقاب مراد بك ، فوصلوا إلى المنيا (٩ سبتمبر) وإلى ملوى (١٠ سبتمبر) ، ومنها إلى ديروط (١٢ سبتمبر) . وعندما علم "ديزيه" أن مراد قد اتجه إلى أسيوط ، أبقى جزءا من قواته بديروط ، واتجه ببقية الجنود إلى أسيوط ، حيث وصلها يوم ١٤ من الشهر نفسه ، ولكنه لم يعثر لأسطول مراد على أثر ، إذ ترك أسيوط إلى جرجا .

وكان هدف مراد من انسحابه إرهاق قوات "ديزيه" من ناحية ، وإطالة خطوط مواصلاته مع مركز القيادة فى القاهرة من ناحية أخرى ، وتوزيع قواته على المدن التى مر بها ، ليحتفظ بخط الرجعة لنفسه فى حالة انسحابه من ناحية ثالثة ، بحيث يقل عدد الجنود الفرنسيين الذين سيلتقى بهم فى نهاية الأمر .

خشى ديزيه من مواصلة زحفه حتى لا يستدرجه مراد ، ويبتعد كثيرا عن بقية جنوده الذين تركهم فى ديروط عند مدخل بحر يوسف ، فعاد أدراجه إليها دون أن يظفر بشىء . وقد مكنت هذه الفترة مراد من أن يعزز استحكاماته فى اللاهون التى اتخذها مركزا لقيادته بعد أن وجد من المصريين كل عون وتأييد .

وعندما عزم "ديزيه" على مهاجمة مراد فى موقعة لم يكن هذا بالأمر الهين فالملاحة فى بحر يوسف كانت صعبة لعدة أسباب لضيق مجرى النهر ، ولضحالة مياهه بصورة أرغمت الجنود الفرنسيين على سحب سفنهم بالحبال . هذا فضلا عن مهاجمة الأهالى للسفن من جانبى النهر . وعندما حاولت القوات الفرنسية النزول إلى البر ، وجدت صعوبة تامة لفحر مياة الفيضان للأراضى الزراعية .

اتخذ مراد من المرتفعات المطلة على بحر يوسف موقعا له ، وأرسل بعض قواته لمناوشة القوات الفرنسية ، ولكنها سرعان ما ارتدت بسرعة لإغراء "ديزيه" على متابعتها ، وفي ٧ أكتوبر ١٧٩٨ تحدث أول مواجهة حقيقية بين القوتين عند بلدة " سدمنت " غربي بحر يوسف ، وكان عدد المصريين والمماليك أكثر من ضعف عدد الفرنسيين ، ويمتازون بالجرأة والحماس الشديد ، ولكن ينقصهم التنظيم والتسليح الجيد ، حمي وطيس المعركة عدة ساعات ، ورغم قلة عدد الجنود الفرنسيين فإن حسن التنظيم وكفاءة القيادة ، وقوة المدفعية قد عوضت هذا النقص . وأسفرت المعركة عن انتصار الفرنسيين رغم خسارتهم ٣٤٠ قتيلا و ١٥٠ جريحا بينما قدر ديزيه خسارة المصريين والمماليك بأربعمائة قتيل ، وذلك حسب تقدير "برتييه" Berthier . (٦)

وتعتبر هذه المعركة من أكبر المعارك التي خاضها الفرنسيون في الصعيد ، فقد مكنتهم من بسط سيطرتهم على إقليم الفيوم الغني بحاصلاته الزراعية ، وأقنعت في الوقت نفسه المصريين والمماليك بعدم جدوى الحرب النظامية ، وأن من الأفضل اتباع أسلوب حرب العصابات التي ترهق الفرنسيين ، وتحرمهم من الطمأنينة والاستقرار ، دون أن ينالوا من المهاجمين كثيرا .

ورغم انتصار "ديزيه" فلم يجرؤ على مطاردة مراد ؛ نظرا لما أصاب الجنود من تعب وإعياء ، ولغمر مياه الفيضان للأراضي الزراعية في تلك الفترة ، ولإصابة عدد كبير من الجنود بالرمد الذي فتك بهم في اللاهون .

ومن الرسالة التي بعث بها "ديزيه" إلى "بونابرت" في ٢٠ أكتوبر ١٧٩٨ ندرك مدى ما عانته القوات الفرنسية في بسط سيطرتها على الصعيد ، فيقول :

" إن أمراض العيون هنا كارثة فظيعة حلت بالجيش ، فقد حرمتني الانتفاع بألف وأربعمائة من رجالي ، واضطررت أن أسحب منهم وراء الجيش مائة فقدوا بصرهم تماما ، ولا يمكنني أن أتعقب مراد بك إلا إذا سد النقص في صفوف جيشي ، وبلغ عدد الفرقة ثلاثة آلاف مقاتل ... ومن الواجب الإسراع في سد النقص ، كيما أستطيع تعقب مراد بك ، فإن بحر

---

(٦) الرافعي ، المرجع السابق ١/ ٣٧٢ .

يوسف بعد قليل من الأيام لا يعود صالحا للملاحة ، إذ تجف المياه فيه ، وأن مركزنا هنا محفوف بالمتاعب ، ولو كانت الحملة التي أقودها على ضفاف النيل لهان الأمر ، ولكني أحارب في الصحراء ، حيث لا توجد طرق للمواصلات ، ولا وسائل للنقل ، حتى ولا للجنود المرضى." (٧)

وعلى الرغم من انتصار الفرنسيين في موقعة " سدمنت " ، إلا أن مركزهم ظل مزعزعا وغير مستقر ، فالاتصال بين قوات "ديزيه" في بحر يوسف وبين النيل ظلت مقطوعة . وكان من العسير على "ديزيه" مهاجمة المماليك والأهالي الذين اعتصموا بالصحراء ، نظرا لما نالهم من إرهاق ومرض وإعاقة الفيضان ، ولذا فقد آثر البقاء في الفيوم بعض الوقت .

وقد صادف "ديزيه" متاعب جمة في محاولته الحصول على الخيول والغلال اللازمة لجنوده من قرى الفيوم ، وذلك لعداء الأهالي للفرنسيين وعدم التعاون معهم . وقد ألح "ديزيه" على "بونابرت" لإرسال قوة من الفرسان تعينه على مطاردة مراد . فأرسل إليه ١٢٠٠ من الفرسان تحت قيادة الجنرال "دافو" Davout ، وكذلك ست سفن حربية .

بدأ "ديزيه" زحفه من بني سويف صوب الجنوب في قوة قوامها أربعة آلاف مقاتل ، يساندهم بعض قطع الأسطول في النيل ، ورافقه في هذا الزحف أكبر قواد "بونابرت" ، مثل الجنرال "بليار" Belliard ، والجنرال "فريان" Vriant ، والجنرال "دنزلو" Danzelot ، والجنرال "راباس" Rabasse ، والجنرال "لاتورنرى" Latournerie . وكلما توغل "ديزيه" في الصعيد ، انسحبت أمامه قوات مراد دون قتال ، فاحتل ببا ، والغش ، والمنيا ، وملوى ، وديروط ، والقوصية ، وأسيوط التي تعتبر من أكبر مدن الصعيد ، ومركزا مهما للتجارة ، إذ ينتهي إليها درب الأربعين الذي تنقل عبره تجارة السودان .

وفي " سمهود " تحدث المعركة الفاصلة الثانية بعد " سدمنت " ، وذلك في ٢٢ يناير ١٧٩٩ ، إذ تلتقي قوة مراد البالغة ١٢٠٠٠ مقاتل مع جيش "ديزيه" البالغ نحو ٥٠٠ جندي ،

---

(٧) المرجع السابق ١ / ٣٧٧ .

ويتكرر ما حدث فى " سدمنت " ، إذ تتغلب القلة المنظمة والمدربة على الكثرة التى تفتقد إلى التنظيم والتسليح الجيد والقيادة الكفء .

بعد هذه المعركة تندفع القوات الفرنسية صوب الجنوب ، فتحتل فرشوط ، ودندرة ، والأقصر ، وأرمنت ، وإسنا ، وإدفو ، وأسوان التى احتلتها فى أول فبراير ١٧٩٩ . أما مراد فقد فر بقواته إلى جنوب أسوان ، أى إلى منطقة النوبة . ولا يعنى وصول القوات الفرنسية إلى أسوان أن الصعيد قد دان لسلطان الفرنسيين ، فقد تجدد القتال فى أكثر من جهة ، وتوضح رسالة "ديزيه" إلى "بونابرت" فى فبراير ١٧٩٩ سوء الأحوال بالصعيد ، ويطالبه بمزيد من الجنود والذخيره لمواجهة الموقف .

وحدث فى يوم ٣ مارس ١٧٩٩ أن كانت السفن الحربية الفرنسية وعددها اثنتا عشرة سفينة تنقل المؤن والذخيرة فى طريقها إلى أسيوط أن أحدق بها الأهالى ، وبخاصة سفينة القيادة "إيتاليا" ، من شاطىء النيل ، وكانت تحت قيادة الضابط "موراندى" Morandi ، ولما وجد أن السفينة ستقع فى أيدى الأهالى لا محالة ، ألقى بنفسه وبجنوده فى النيل ثم قام بتفجيرها ، وخسر الفرنسيون من جراء هذا الحادث خمسمائة من البحارة . وتعد هذه الخسارة من أكبر الخسائر التى منى بها الفرنسيون فى حملتهم على الصعيد ، وقد علم "بونابرت" بهذا النبأ أثناء حملته على الشام ، فحزن لهذا الحادث حزنا شديدا ، وذلك لاعتزازه الشخصى بتلك السفينة .

ومن الأمور التى تدعو للعجب أن نرى "ديزيه" يكتب إلى "بونابرت" فى ١٧ مارس ١٧٩٩ بعد معركة أبنود (٨ - ١٠ مارس) يصف فيه الوضع بعد المعركة ، فيقول " أننا نعيش هنا عيشة ضنكا ، فإن جميع القرى تقفر من السكان كلما اقتربنا منها ، ولا نجد فيها شيئا من القوت ، ولا ندرى السبب فى هذه الحالة ، على أننا مع ذلك لا نعمل عملا ضارا فى البلاد التى يختارها . " (٨)

(٨) المرجع السابق ١ / ٤١٣ .

يتساءل "ديزيه" عن سبب ترك الأهالى لقراهم ، وعدم تعاونهم معهم ، فى حين أنه لم يلحق بهم أى ضرر ، أليس احتلال الأرض وانتهاك حرمات الناس ، والاستيلاء على أقواتهم ، وحرق القرى التى تقاومهم ، ومصادرة أرزاقهم ، أليست هذه أعمالا ضارة ، بل أعمالا وحشية ؟ ولكن هذا هو منطق الغزاة المستعمرين .

لقد أنهكت القوات الفرنسية فى غزوها للصعيد ، فاذا ما أخضعوا بلدا من البلاد وتركوها لغيرها ، عادت إلى التمرد والعصيان والمقاومة من جديد ، بحيث أصبحت تلك القوات تدور فى حلقة مفرغة لا أول لها ولا آخر ، وقد امتلأت مراسلات "ديزيه" إلى "بونابرت" بالشكوى المرة من تدفق عرب الحجاز عبر ميناء القصير على البحر الأحمر والمواجه لموانى الحجاز ، فكل المعارك التى خاضها الفرنسيون تقريبا قد شارك فيها هؤلاء جنبا إلى جنب مع المصريين .

الحملة البحرية الفرنسية على القصير :

كان من الضرورى الاستيلاء على القصير لسد هذا المنفذ الذى ترد منه الإمدادات المتلاحقة . وفى الحقيقة فإن الغزو الفرنسى لمصر قد أحدث دويا وصدى عميقا لدى الأقطار العربية والإسلامية ، مثل بلدان شمال أفريقيا والسودان وشبه الجزيرة العربية ، لا سيما حجاج شمال أفريقيا الذين كانوا يمرون بمصر فى ذهابهم إلى الأراضى المقدسة فى الحجاز ، وكذلك المعتمرون ، ويسلكونها كذلك فى طريق عودتهم إلى بلادهم ، فاحتلال مصر من قبل دولة غير إسلامية اعتبروه خطرا على الإسلام والمسلمين . ومن المحتمل أن يحرم هؤلاء الحجاج من الوصول إلى الحجاز عبر مصر . ومن ثم يجب عليهم دفع هذا الخطر .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد كانت مصر سوقا رائجة لبيع منتجاتهم التى يحملونها معهم ، ويشترون منها ما يبيعونه فى الأراضى الحجازية . ويحدث الشىء نفسه فى طريق عودتهم إلى بلادهم عبر مصر ، إذ يشترون من الحجاز ما يحتاج إليه أهل مصر .

فمصر بالنسبة لهؤلاء الحجاج والمعتمرين تسهل لهم أداء شعائرهم الدينية ، ومكان مهم للتبادل التجارى ، فالتطوع من قبلهم للدفاع عن مصر كان محببا إلى نفوسهم ، وفى الوقت نفسه أداء لفريضة الجهاد .

ولما كان ميناء القصير يعتبر المنفذ الرئيسى الذى يفد منه هـؤلاء المجـاهدون مـن مينـائى ينبع وجدة على البحر الأحمر ، وفى طريقهم إلى قنا عبر الصحراء الشرقية ، حيث ينضمـون إلى المقاتلين المصريين والمماليك . (٩) فكان هؤلاء يمثلون الدماء الجديـدة التـى تغذى حركـة المقاومة للغزو الفرنسى .

ومـن يطلـع علـى تقـارير ومراسـلات ضبـاط الحملـة الفرنسـية فـى الصعيـد إلـى قيـادتهم بالقاهرة ، يجد أنه ما من معركة حدثـت بينهم وبيـن المصرييـن إلا وكـان لهـؤلاء المجـاهدين نصيب فيها. ولم تكن الإمدادات الآتية من شبه الجزيرة العربية كلها من أهل الحجـاز ، وانمـا كان ينضم إليهم الحجاج من المغاربـة والمصرييـن وغيرهم مـن أجنـاس أخـرى ، وإن كـانت الوثائق الفرنسية تطلق عليهم بصفة عامة اسم الحجازين نسبة إلى المكان الوافديـن منـه . وقد اعتبر هؤلاء المجاهدون – كما بينا – مقاومة الفرنسيين وحربهم جهادا فى سـبيل اللـه ؛ ومـن ثم كانوا يقاتلون بشجاعة واستبسال طلبا للشهادة . وهذه الظاهرة إن دلـت علـى شـىء ، فإنمـا تدل على مدى التضامن والترابط بين الشعوب العربية والإسلامية فى ذلك الوقت وكـانت هذه الإمدادات توضع تحت قيادة حسن بك الجداوى ، أحد كبار المماليك .

أدرك الفرنسيون بعد سلسـلة المعـارك التـى خاضوهـا فـى الصعيـد أن المجـاهدين الذيـن يتدفقون من ميناء القصير يثيرون حماس الأهالى بصورة أزعجت السلطات الحربية الفرنسية، فكان من الضرورى الاسـتيلاء علـى هـذا الميـنـاء لغلـق هـذا المنفذ ؛ لحرمـان المصرييـن مـن مساعدة إخوانهم فى الدين .

رأى بونابرت فى بداية الأمر غزو الميناء عن طريق البحر ، فأرسـل مـن مينـاء السـويس أسـطولا مكونـا مـن أربعـة زوارق حربيـة ، هـى "تاليـامنتو" Taglimento ، "وكاسـتيليونى"

---

(٩) Deherain , Henri , L' Egypte Turque - Pachas et Mamluks du XVII e au XVIII siecle - L' Expedition du General Bonaparte , Histoire de la Nation Egyptienne , T.V, p.392.

Castiglioni ، "ومليزيمو" Millesimo ، "وازنسو كولو" Collot Isanzot تحمل ثمانين جنديا ، وذلك للقيام بمناورة بحرية أمام ميناء القصير ، تمهيدا لاحتلاله . (١٠)

وصل الاسطول الفرنسى أمام القصير فى ٩ فبراير ١٧٩٩ ، حيث كان حسن الجداوى على رأس قوة من المجاهدين الحجازيين محتشدة قرب الساحل ، وما أن اقترب الأسطول من الشاطىء إلا وقوبل بالقنابل . وتبادل الطرفان إطلاق النار ، فاشتعلت على أثرها سفينة القيادة "تاليامنتو" وغرقت فى البحر . كما قتل الجنود الفرنسيون الذين ألقوا بأنفسهم فى البحر ووصلوا إلى الشاطىء . وما أن حدث ذلك حتى لاذت السفن الثلاث بالفرار عائدة إلى ميناء السويس وأسفرت المعركة عن قتل سبعة وخمسين فرنسيا . (١١)

ولم يكن أمام الجنرال ديزيه بعد فشل الحملة البحرية إلا أن يرسل حملة برية عبر الصحراء الشرقية إلى القصير ، وذلك بناء على نصيحة بعض شيوخ مدينة قوص الذين يكنون كراهية للمماليك . وأوضحوا له بأن كبح جماح المماليك والقضاء على قوتهم لن يتم طالما بقى ميناء القصير مفتوحا أمام تدفق الإمدادات البشرية من شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم وجب الاستيلاء عليه وإخضاعه لسيطرتهم . (١٢)

الحملة البرية الفرنسية على القصير :

قبل أن أدخل فى تفاصيل الحملة التى خرجت من مدينة قنا على النيل لغزو بلدة القصير ، أجد لزاما على أن أعطى لمحة سريعة عن حال البلدة عند غزوها ، لا سيما وأن أحد علماء الحملة الفرنسية وهو "دى بوا ايمية" (١٣) De Bais Ayme قدم لنا دراسة تفصيلية عنها .

---

(١٠) Bonaparte au General desaix , quartier General , nos. 3934 T 3953 , au caire , 15 et 22 Pluvoise an VII (3 et 10 Ferrier 1799) . Correspondances de Napoleon 1 er T.V , Paris , 1860 , pp . 295 et 311 .

(١١) Delerain , op . cit . pp . 392 - 393 .

(١٢) Ibid ., p . 393 .

(١٣) 'دى بوا ايميه' جيولوجى ، وعضو فى لجنة العلوم والفنون التى أنشأها 'بونابرت' فى مصر ، وأمضى هذا العالم شهرين دارسا ومنقبا فى القصير ، وله بحوث قيمة فى هذا المجال ، تضمنها كتاب 'وصف مصر' فى المجلد الحادى عشر .

تقع بلدة القصير على ساحل رملي يبلغ طولها مائتين وخمسين مترا ، وعرضها لا يزيد عن مئة وخمسين مترا . وتتميز مباني البلدة بالانخفاض ، إذ لا يتجاوز ارتفاعها دورين ، ومبنية بالطوب اللبن . ويتكون البيت " من فناء كبير ، وفوق بابه مقصورة صغيرة مربعة الشكل ، وينتهي الطابق العلوي بشرفه . أما الطابق الأرضي فيضم حجرة أو حجرتين بالغتي الضيق ، ويلتصق بهما من الخلف جدار السور ، ويستخدم الفناء مخزنا . " (١٤)

وزود كل بيت بخزان للمياه ، ويستمد الأغنياء مياههم من عين على بعد ثمانية أو تسعة فراسخ (١٥) بالإضافة إلى عين أخرى للمياه أقل جودة . وعندما استولى الفرنسيون على البلدة قاموا بحفر بئر إلى الجنوب الغربي من المدينة تكفي مياهها لاستهلاك ستمائة رجل في اليوم.

ومن أهم معالم البلدة "القصر" ، وهو يطلق على القلعة التي بناها العثمانيون للدفاع عنها ، وهي تقع خلف البلدة من الداخل ، وقد شيدت من الحجر الجيري فوق هضبة تتحكم فيها بصورة تامة . (١٦) وتتخذ القلعة شكلا معينا تعلوه أربعة أبراج في زواياها الأربعة . ويبلغ سمك جدرانه فيما بين ٢٦٠ – ٣٠٠ سم . ومبنية بالحجر الجيري . وبالقلعة عدد قليل من الغرف ، وبها بئر لسقاية الدواب لأن مياهها تميل إلى الملوحة لقربها من ساحل البحر ، وخارج القلعة خزان قديم للمياه ، يسمح بتخزين ٤٥ مترا مكعبا من المياه التي تأتيه من التلال المحيطة بالقلعة عن طريق مسارب عديدة في فصل الأمطار . ويحيط بالبلدة أراض صحراوية تماما ، اللهم إلا من نبات الحنظل .

---

(١٤) De Bois Ayme , Memoire Sure la Villee de Qocyr et ses Envirens et sur les Peuples Nomades qui habitent cette , L' Ancienne troglodytique - description de L' Egypte , T.XI - Etat Maderne , second Edition par C.L.F. Panchaucke , Paris 1822, p . 383 .

وقام الأستاذ زهير الشايب بترجمة هذه المذكرات إلى اللغة العربية تحت عنوان " العرب في ريف مصر وصحراواتها – القصير والعبابدة " ، مكتبة الخانجي بمصر ١٩٨٠ ، ص ٢٤٧ .

(١٥) الفرسخ يساوي ثلاثة أميال .

(١٦) قمت بزيارة القصير وقلعتها في عام ١٩٩٠ ، ووجدت القلعة في حالة يرثى لها من الإهمال ، فقد تهدمت بعض أجزائها ، وأصبحت مكانا يلهو فيه الأطفال ، ومرتعا للدواب مثل الخراف والماعز ، وامتلأت بالقازورات والنفايات .

ويجب على المسئولين في هيئة الآثار أن يسارعوا بترميم هذه القلعة ، والمحافظة عليها ، لأنها من آثار مصر في العصر العثماني ، وقد لعبت دورا مهما في الدفاع عن البلدة لا يمكن إنكاره . ولا أعرف الآن ما وصل إليه حالها ، وأرجو أن تكون قد أدركتها عناية المسئولين .

أما عن سكان البلدة فهم من التجار الوافدين من شبه الجزيرة العربية ومن صعيد مصر ، يلتقون فيها لممارسة أعمالهم التجارية . ومعنى هذا أنه ليس ببلدة القصير سكان يقيمون فيها إقامة دائمة إلا قليلا . وشيوخ البلدة من تجار ينبع الذين حصلوا على التزام جمركها . وعندما احتلها الفرنسيون عهد إلى الجنرال "ديزيه" إلى إدارة جمركى القصير وقنا ، وذلك لارتباط كل منها بالآخر ، ووجود التجار وشيوخ البلدة من أهالى الساحل الحجازى يدل على مدى الارتباط الذى كان يربط بين الطرفين .

ونظرا لضحالة المياه عند الشاطىء ، فقد كان يتعذر على السفن الرسو عليه مباشرة ، بل كانت تقف على بعد ثمانية أو عشرة أمتار منه ، حيث يقوم الحمالون بنقل البضائع على ظهورهم إلى اليابسة . ويقع الميناء عند مداخل وديان – وهى حسب ما ذكره دى بوا ايميه ستة عشرة أو سبعة – (١٧) تؤدى إلى وادى النيل . ولذا كان من الطبيعى أن يقع اختيار الأهالى على القصير لتكون مستودعا ومنفذا لتجار الصعيد مع شبه الجزيرة العربية .

وكان صيادو الأسماك القادمون من جدة وينبع يقيمون فى خيام شمالى القصير ، والسمك هو الغذاء الرئيسى للسكان ، ويستخدمون فى صيده الشباك والرماح ، ويقومون بتجفيفه لتموين السفن به ، والمقايضة به فى شراء ما يحتاجون إليه .

ويعيش العبابدة – وهم من القبائل الرحل التى سكنت المناطق الجبلية شرق نهر النيل فى جنوب وادى القصير – فى هذه المنطقة ، ويمتلكون بعض القرى الواقعة على الضفة الشرقية للنيل ، وأهمها : دراو ، والشيخ عامر ، والرديسية . وكان العبابدة يفرضون إتاوة على البضائع الواردة إلى القصير فى مقابل تأمين طرق القوافل المارة بها . " والعبابدة مسلمون محاربون ، ليست لديهم أسلحة نارية ، ولكن يتسلح الرجل منهم بسيف مستقيم ذى حدين ، وبسكين مقوسة يعلقونها فى ذراعهم اليسرى . وترسا مستديرة من جلد الفيل ، ويعرفون العربية ،وإن كانت لهم لغتهم الخاصة بهم . " (١٨)

---

(١٧) زهير الشايب ، المصدر نفسه ص ٢٥٦ .
(١٨) نفسه ص ٢٥٤ .

لم يكن أمام الفرنسيين – كما ذكرنا – بعد فشل حملتهم البحرية إلا أن يرسلوا حملة برية ، عبر الصحراء الشرقية ، للاستيلاء على القصير ، وخصوصا بعد ظهور قطع من الأسطول الانجليزى فى البحر الأحمر أمام السواحل المصرية ، هذا الظهور الذى أزعج الفرنسيين أيما إزعاج . (١٩) ولذا يكلف "ديزيه" – القائد العام للقوات الفرنسية فى الصعيد – الجنرال "بليار" بسرعة إعداد الحملة ، لإبعاد خطر الإنجليز عن القصير ، ورد "بليار" على هذا التكليف بحاجته إلى ستمائة جمل لنقل ستمائة جندى ، بما يحتاجونه من ماء وزاد لمدة عشرة أيام . ونفس هذا العدد لنقل الشعير اللازم لإطعام ستين فرسا للمدة نفسها . وفى أواخر مايو ١٧٩٩ كان كل شيء قد تم إعداده .

وفى ٢٦ مايو ١٧٩٩ خرجت الحملة من مدينة قنا ، وعلى رأسها الجنرال بليار ومساعدة الجنرال "دنزلو" Donzelot ، وتضم ثلاثمائة وخمسين جنديا من المشاة والمدفعية ، ويصحبهم سبعمائة وخمسون جملا . وبعد مسيرة ثلاثة أيام عبر الصحراء الشرقية ، أى فى ٢٩ مايو وصلوا إلى القصير ودخلوها دون مقاومة تذكر ، ومما يدعو إلى الدهشة ألا تقاوم البلدة القوات الفرنسية ، مع أنها قد قاومت من قبل الأسطولين الانجليزى والفرنسى ، ومنعت نزول قواتها إلى البر ، ومن نزل منهم قضت عليه قضاء تاما .

وقبل أن يغادر الجنرال "بليار" القصير فى ٣٠ مايو ١٧٩٩ كتب إلى الجنرال "ديزيه" يخبره بنبأ احتلال القصير ، ويصفها له ، ويبين له بأنها قرية صغيرة يبلغ عدد سكانها وقتذاك ما بين أربعمائة وخمسمائة نسمة . ويصف له قلعتها وكيف تتحكم بفضل موقعها فى السيطرة على البلدة . كما أن بعد القلعة عن ساحل البحر جعلها فى مأمن من مرمى مدافع السفن الحربية الإنجليزية ، وهى فى حاجة إلى اصلاح ، وقد كلف الجنرال "دنزلو" القيام به ، كى تؤدى عملها على الوجه الأكمل ، وتكون مستعدة لأية مفاجأة . (٢٠)

سرعان ما غادر "بليار" القصير بعد أن ترك قيادة القوات الفرنسية بها للجنرال "دنزلو"،أى فى أول يونية من السنة نفسها بعد أن زوده بتعليماته وهى : " أتركك ياعزيزى "دنزلو" فى القصير لتضع أسس أول مؤسسة فرنسية فى بلد يعطى احتلالها أهمية كبيرة للعلاقات

---

(١٩) Deherain , Op . cit . p . 393 .

(٢٠) نفسه ص ٣٩٥ .

التجارية التى يجب أن تقيمها الجمهورية الفرنسية فى الهند ، ولتضمن هدوء الأوضاع فى مصر العليا . أنى أضع بين يديك ، يا عزيزى "دنزلو" مهمة العناية بالتحصينات وباقى الأعمال لأؤكد لك بأن الصعوبات التى تواجهنا فى الصحراء سوف تزول ، وأن مؤسستنا سوف تعيش فى أقرب وقت فى مأمن من كل أنواع العداء . " (٢١)

يتضح من هذه الرسالة أن من أهداف الحملة الفرنسية الرئيسية إيجاد علاقات تجارية مع الهند ، لمنافسة التجارة الإنجليزية ، وأن موقع القصير على البحر الأحمر ، واتصالها بصعيد مصر عن طريق قنا ، وعلاقتها بشبه الجزيرة العربية ، يؤهلها للقيام بهذا الدور الذى كانت تقوم به فعلا قبل مجىء الحملة ، كما أن الاستيلاء على البلدة سيسد هذا المنفذ فى وجه المجاهدين المسلمين ، وبذلك تطيب لهم الإقامة بعد القضاء على المقاومة فى الصعيد .

ومما يدل على مدى أهمية الاستيلاء على القصير بالنسبة للفرنسيين ، التقدير الذى أرسله "بونابرت" عقب عودته من حملة الشام (١٧٩٩) إلى حكومته يقول فيه : " إن احتلال القصير والسويس والعريش قد أقفل طريق الوصول إلى مصر من جهة البحر الأحمر وسوريا اقفالا تاما . كما أن تحصين الإسكندرية ورشيد ودمياط يحبط كل هجوم من البحر المتوسط ، ويضمن إلى ما شاء الله للجمهورية الفرنسية امتلاك البقعة الجميلة فى العالم التى ستكون للحضارة أكبر الأثر فى إنهاضها وإحياء عظمتها القومية . " (٢٢)

كان "دنزلو" يخشى مفاجأة الأسطول الانجليزى له ، وقد صدق حدسه ، ولذا كان تحصين مواقعه بكل ما لديه من إمكانيات هو شغله الشاغل فى تلك الفترة . ويتضح ذلك من خلال الرسائل العديدة التى بعث بها إلى الجنرال "ديزيه" ، والجنرال "بليار" ، و"ديجوا" Dugua يطلب فيها إمداده بالمدافع الكبيرة ، وبالبنادق المهرة ، حتى يتسنى له تأمين قواته . ومما زاد من صعوبة مركزه ، أنه كان يعتمد فى إمداده بالمياه والدقيق والفول والشعير والزيت على مدينه قنا .

---

(٢١) نفسه ص ٣٩٦ .

(٢٢) الرافعى ، المرجع السابق ١ / ٤٣٢ .

وفى الوقت نفسه قام بحفر العديد من الآبـار ليقلل مـن اعتمـاده بعـض الشـيء علـى جلـب المياه من قنا . كما قام بتشكيل كتيبة من القناصة المحمولة على الإبـل لمنـع تسـلل المجـاهدين من الساحل الحجازى ، وهو التسلل الذى لم ينقطع .

الهجوم الانجليزى البحرى على القصير :

حاصرت بريطانيا الشواطىء المصرية المطلة على البحر المتوسط لتقطع كل اتصـال بيـن الحملـة وفرنسـا . وكذلك راقبت شـواطىء البحـر الأحمـر لتحـول دون اتصـال الحملـة بشـبه الجزيرة العربية والهند . ولما كان ميناء القصير ذا قيمة كبيرة للفرنسيين ، فهو منفذ مهم لهم على البحـر الأحمـر ، فقد رأت بريطانيـا مهاجمتـه بفرقـاطتين حربيتيـن تحـت قيـادة الضـابط بلانكت Blankett فى منتصف أغسطس ١٧٩٩ ، حيـث هـاجمت الفرقاطتـان القلعـة ، تمهيـدا لاقتحامها ولكن حاميتها لم ترد على النار بـالمثل . وعندمـا استقل الجنـود الانجليز الـزوارق واقتربوا من الشاطىء فى محاولة للنزول ، بدأت حاميـة القلعـة تمطرهـم بوابـل مـن قذائفهـا ، أرغمتهم على الارتداد إلى الفرقاطتين مسرعين .

تكررت المحاولة فى اليوم التالى تحت حماية طلقات المدفعية البحرية ، ونجحوا فى إنزال بعض الجنود ، ونشبت معركة حامية بين الطرفيـن ، لـم يستطع الإنجليز خلالهـا مـن تثبيـت أقدامهم على الشاطىء فانسحبوا مرة ثانية .

وفى المرة الأخيرة (١٦ أغسطس ١٧٩٩) قام الإنجليز بمحاولة أخرى ، لم يكن نصيبهـا بأفضل من المحـاولتين السابقتين ، فلم تجد الفرقاطتان بدا من الانسحاب فى ١٧ أغسـطس بعـد أن أحدثت خسائر جسيمة فى جدران القلعة وفى البلدة .

ونظرا لاحتمال معاودة الإنجليز الهجوم بقـوة بحريـة أكبر ، أسـرع "دنزلـو" بـاصلاح مـا خربته المعارك مـن مبـانى القلعـة ، بل وأضـاف تحصينـات جديـدة استغرقت عدة شـهور . ويعتبر نـجاح القائد الفرنسى "دنزلو" فى صد الهجوم الإنجليزى أكبر نجـاح فـى تـاريخ حياتـه العسكرية .

وعندما ترامى إلى سمعه نبأ اعتزام الحملة الفرنسية الجلاء عن مصر ، كتب إلى الجنرال "ديزيه" فى ٧ نوفمبر ١٧٩٩ يبدى أسفه لسماع هذا النبـأ ، لأنـه كـان مـن أنصـار البقـاء فـى

مصر، والاحتفاظ بها لصالح الجمهورية الفرنسية . ولما تيقن من الخبر بعد توقيع معاهدة العريش في ٢٤ يناير ١٨٠٠ ، (٢٣) وطلب منه الجلاء عن القصير ، أرسل إلى الجنرال "ديزيه" في ٧ فبراير ١٨٠٠ يبدى دهشته لأمر الجلاء ، ويود معرفة السبب . ولكنه قام بتنفيذ الأمر ، وغادر القصير في نهاية هذا الشهر . وقد منح دنزلو حكم مصر الوسطى قبل جلاء الفرنسيين عن مصر بصفة نهائية . (٢٤)

وعلى أثر انسحاب الفرنسيين من القصير نزلت بعض القوات الهندية ، وتقدر بثلاثة آلاف مقاتل تحت قيادة الميجر جنرال "دافيد بير" David Bird على شاطيء القصير . ثم عززت بعد ذلك بألفين آخرين ، ونزلت بالقلعة وكانت في حالة جيدة بعد أن رممتها ودعمتها القوات الفرنسية في أعقاب الغزو البحرى الانجليزى . ولم تطل إقامة تلك القوات بالقصير ، فغادرتها في يونيه ١٨٠١ متجهة إلى قنا ، ومنها إلى القاهرة .

وبعد خروج الفرنسيين من مصر عادت حركة التجارة بين ميناء القصير وميناءى جدة وينبع كما كانت عليه من قبل . وسنجد أن حروب محمد على في شبه الجزيرة العربية ستزيد من حركة التجارة والنقل بين القصير وموانيء الحجاز بشكل ملحوظ . ومن ثم زادت أهمية هذا الميناء ، لأنه أقصر طريق بحرى عبر البحر الأحمر .

الاتفاق مع مراد بك :

نعود مرة ثانية إلى سير الأحداث في صعيد مصر ، فنجد أن الهزائم التى منى بها مراد بك ، أرغمته على التفكير الجدى في التقرب من الفرنسيين ومصالحتهم ، لا سيما بعد أن أرسلت الدولة العثمانية حملة إلى مصر لإخراج الفرنسيين بمساعدة بريطانيا . فقد أدرك أن انتصار العثمانيين سيؤدى إلى إخضاع مصر لحكمهم المباشر بعد تجريد المماليك من سلطاتهم . وكان ذلك قبل عقد معاهدة العريش . وقد ذكر الجبرتى (٢٥) في حوادث ذى الحجة ١٢١٤هـ / مايو ١٨٠٠ أن الصلح قد تم بين كليبر ومراد بك بعد إخماد ثورة القاهرة في ٧ ذى الحجة ١٢١٤ هـ / ٢ مايو ١٨٠٠ م . وقد سبقه تفاهم بين الطرفين بعد نقض معاهدة

(٢٣) Bonaparte au citoyen Tallyrand , Ministre des Relations Exterieures , Lausanne , no. 4800 , 25 Floreal (15 Mai 1800) 1 er T.V , pp . 284 -285 .

(٢٤) Deherain , op . cit . p 398 .

(٢٥) الجبرتى ، ٣ / ١١١ .

العريش ، وقبيل معركة عين شمس (٢٠ مارس ١٨٠٠) بأن يقف مراد على الحياد في الصراع الفرنسي العثماني ، وقد بر مراد بوعده ، انتظارا لنتيجة المعركة وللانضمام إلى الجانب المنتصر .

وعندما تحقق للفرنسيين النصر ، عزم على عقد صلح معهم ، بشرط أن يتركوا له حكم الصعيد تحت سيادتهم . فأرسل مراد من قبله عثمان بك البرديسي مفوضا لعقد الصلح سرا حتى لا يتعرض أتباعه لانتقام العثمانيين .

ويعلق "كليبر" في مذكراته على ذلك بقوله : " على أن مراد بك كتم أمر الاتفاق عن أتباعه ، وهذا يرجع لسببين ، فإما أن مراد بك خشى إذا أذاع أمر الاتفاق أن يسيء إلى البكوات والمماليك من أتباعه الذين غامروا بأنفسهم في ثورة القاهرة ، ويجعلهم عرضة لانتقام العثمانيين ، وإما أنه كان غير واثق من أن النصر النهائي سيكون لنا ، فأراد أن يرقب الحوادث قبل أن يكشف عن حقيقة موقفه ، وهذا ما أرجحه . " (٢٦) وأرى أن السببين معا حتما على مراد إتخاذ هذا الموقف .

نص الاتفاق على منح مراد حكم الصعيد من جرجا إلى أسوان ، على أن يدفع خراجا سنويا قدره ٢٥٠ كيسا ، بالإضافة إلى ١٥٠٠٠ أردب قمح و ٢٠٠٠٠ أردب شعير وحبوب . على أن يمنح مراد بك إيراد جمركي القصير وإسنا ، وأن يحتل الفرنسيون القصير .

زاد ولاء مراد للفرنسيين بعد الاتفاق ، " وأهدى إلى بعضهم هدايا جليلة وتقادم عظيمة وأعطاه (يقصد كليبر) ما كان أرسله درويش باشا (المعين من قبل الصدر الأعظم واليا على الصعيد) معونة للباشا والأمراء من الأغنام وغيرها ، وكانت نحو أربعة آلاف رأس . " (٢٧)

بلغ من سوء تصرف مراد وخيانته لمصر ما ذكره المسيو "جالان" وهو شاهد عيان لثورة القاهرة الثانية – بأن مراد سعى لدى أعوانه بالقاهرة للعمل على تسليم المدينة للفرنسيين .

---

(٢٦) الرافعي ، ٢ / ١٦٥ .
(٢٧) الجبرتي ، ٣ / ١١١ .

وعندما وجد أن مسعاه قد فشل عرض على الفرنسيين إحراق المدينة ، وأرسل لهم عدة مراكب محملة بالأخشاب لهذا الغرض . " (٢٨)

وعندما هزم "بليار" في معركة الزوامل (١٦ مايو ١٨٠١) أمام القوات الإنجليزية العثمانية المشتركة ، تحرج موقفه في القاهرة ، فاستنجد بحليفه مراد بك الذى هب لمساعدته ، فسار على رأس قواته متجها إلى القاهرة ، ولكنه أصيب بالطاعون ، وتوفى بسوهاج فى ١٨ أبريل ١٨٠١ . وبذلك فقد الفرنسيون العون الوحيد لهم فى مصر .

عين عثمان بك الطمبورجى خلفا له ، فأظهر ولاءه للفرنسيين ، ولكنه ما لبث أن انقلب عليهم بعد أن رجحت كفة العثمانيين والإنجليز . وكان لتعاقب الهزائم على الفرنسيين ، وانتشار الطاعون الذى أودى بحياة خمسمائة من الجنود ، أثره على القادة العسكريين الفرنسيين الذين اجتمعوا فى المجلس الحربى الفرنسى فى القلعة ، للنظر فيما يجب عليهم اتخاذه حيال هذا الموقف الخطير . فاقترح الجنرال "دنزلو" الذى قدم لتوه من الصعيد بانسحاب الجيش الفرنسى إلى الوجه القبلى ، حيث إنه أصلح لمقاومة القوات النظامية ، والعمل على إنهاك القوات العثمانية والإنجليزية ريثما تقرر الحكومة الفرنسية ما تريده بشأن مصر .

لم يؤخذ بهذا الرأى لعدم جدواه ، ولاستطاعة قوات الدولتين مطاردة القوات الفرنسية إلى أقصى حدود مصر فى الجنوب . واتفقت الآراء أخيرا على فتح المفاوضات من جديد . تلك المفاوضات التى انتهت بتوقيع اتفاقية الجلاء فى ٢٧ يونيه ١٨٠١ ، على أن يتم جلاء الفرنسيين عن مصر فيما لا يزيد عن خمسين يوما من توقيع الاتفاقية ، وهى لا تختلف فى بنودها عن معاهدة العريش التى رفضتها بريطانيا . واضطر "مينو" الذى كان معتصما بالإسكندرية إلى توقيع اتفاقية أخرى لجلاء قواته عن المدينة فى ٣١ أغسطس ١٨٠١ .

بعد هذا العرض الموجز لما قامت به الحملة الفرنسية على الصعيد ، يمكننا الخروج بالنتائج التالية :

---

(٢٨) الرافعى ، ٢ / ١٧٠ .

أولا : إن الحملة الفرنسية قد وجدت مقاومة شديدة فى صعيد مصر أكثر مما وجدته فى بسط نفوذها على الوجه البحرى ، وذلك لاختلاف طبيعة كل منها .

ثانيا : كان المقاتلون المصريون يمثلون الأغلبية الساحقة بالنسبة للمماليك فى كل المعارك التى خاضوها ضد الفرنسيين . ومعنى هذا أن عبء مقاومة الحملة قد وقع على كاهل المصريين فى المقام الأول .

ثالثا : دأبت المدن والقرى التى خضعت للفرنسيين ، على الانقلاب عليهم أكثر من مرة ، ليس بدافع الوطنية والدفاع عن الأرض والعرض فحسب ، وإنما بدافع الأخذ بالثأر لقتلاهم أيضا .

رابعا : لعب المجاهدون من الحجاج والمعتمرين الذين تدفقوا على القصير من الأراضى الحجازية ، وانضموا تحت لواء المقاتلين المصريين ، دورا مهما فى إذكاء روح المقاومة والقتال من أجل تحرير الأرض أوالشهادة . ويمثل هذا الشعور الفياض نوعا من التضامن العربى الإسلامى .

خامسا : ظهرت أثناء الحرب أهمية القصير على البحر الأحمر كميناء استطاع أن يصد هجمات الأسطولين الفرنسى والإنجليزى المتعاقبة عليه ، وأن يقوم بدور مهم فى مقاومة الفرنسيين .

سادسا : تكبد الفرنسيون خسائر كبيرة ، نتيجة تفشى مرض الطاعون ، والرمد الذى أصاب الكثيرين منهم .

سابعا : رغم التضحيات الجسيمة التى بذلها الفرنسيون فلم يستطيعوا الاستقرار فى الصعيد ، واضطروا فى نهاية الأمر إلى الاتفاق مع مراد بك ، تنازلوا بمقتضاه عن حكم الصعيد تحت سيطرتهم .